

الصّلات الثّقافيّة بين تلمسان وفاس

أ.د. محمد مرتاض

جامعة تلمسان

إنّ الاقتصار على مدينتين متقاربتين جغرافياً ومتشابهتين حضارياً يكون أجدى من الحديث عن الصّلات الثّقافيّة الشّاملة ما بين الجزائر والمغرب، لأنّ ذلك يُفضي إلى تبدّد الجهود، وتشتّت الأفكار، وتكاثر الحشو، فلا يظفر المتلقّي في نهاية الأمر بأكثر من شذرات متناثرات هنا وهناك؛ لذلك يكون من التّعسف الفكريّ والجنون العقليّ أن أتناول العلاقة الثّقافيّة بين الجزائر والمغرب بصورة شاملة، باعتبار أنّ ذلك معناه التّيهان في عالم حسبه أنّ مراكش وبجاية وسبتة ووهران والمسيلة ومكناس توشك أن تتحدّانا بمآثرها وما أُلّف فيها من مجلّدات ضخام، تنطق بتلك الرّوابط الثّقافيّة التي كانت قائمة بينها عن طريق الاتّصال عمودياً وأفقيّاً.

ورُكّحاً على اعتبارات ذُكرت، وأخرى أُغفلت، فإنّ حديثي سينصبّ على ما يتعلّق بالجانب الثّنائيّ للمدينتين التّاريخيّتين العريقيّتين: فاس وتلمسان، وبصورة مختصرة، فإنّ هدفي في هذه الكلمة هو تطبيق الحكمة السّائرة: «خير الكلام ما قلّ ودلّ».

إنّ رجالات الفكر والأدب كانوا يتنقلون بلا جوازات، ويخترقون الحدود الوهميّة بلا تأشيرات منذ فجر التّاريخ، فلمّا أشعّ نور الإسلام على ربوع هذه الديار، ووحد بين الأقطار المغاربيّة، صار كثير من العلماء المنتمين إلى تلمسان يستقبلون في مدينتهم تلامذة ومدرّسين وقضاة من فاس، كما أنّ مدينة فاس كانت الملاذ الأفضّل والمورد الأمثل لعلماء تلمسان وفقهائها ومتصوّفيها حيث يُنبئنا التّاريخ أنّ عدداً من هؤلاء الأعلام دُفِنوا هناك، وعدداً موازياً من أعلام فاس ووروا الثّرى هنا، وهكذا دواليك.

والجدير بالإشارة أنّ الشّعراء والأدباء تنافسوا في وصف المدينتين وجمال طبيعتهما السّاحرة، حتّى تعذّر على المؤرّخين تسجيل كلّ الأسماء في قراطيسهم؛ فقد وصف مدينة فاس الشّاعر الفقيه محمد المغيلي بقصيدة منها:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى
وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الخلد التي أربت على
عدن بمنظرها البهي الأجل
غرف على غرف ويجري تحتها
ماء ألد من الرحيق السلسل
ويساتين من سندس قد زخرفت
بجداول كالأيام أو كالفيصل¹

أما تلمسان الشهباء، فقد استقطبت الأنظار إليها وجذبت البعول نحو مفاتها فراحوا
يتدافعون لخطب ودها ويستسهلون مهرها في طليعتهم رضيعها وربيب قصورها ابن خميس
الذي تغنى في قصيدة طويلة بمختلف مكوّناتها، منها:
تلمسان جادتك السحاب الروائح
وأرست بواديك الرياح اللواقح
إلى أن يقول:

وإن أنس لا أنس الوريط ووقفه
أنافح فيها روضه وأفاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت
لإنسان عيني من صفاه صفائح
قراح أتى ينصب من رأس شاهق
بمثل حلاه تستحث القرائح²

هذا، وقد شغلت تلمسان حيّزا كبيرا من اهتمام القدامى وبعض المحدثين على نحو ما
فعل الفارس المغوار الأمير عبد القادر بعد ما حرّرها من سيطرة الفرنسيين الأرجاس سنة
1854م، فقال متغزلاً بها كما لو كانت حسناء من البشر، نجتزئبييت واحد من مطوّله:

فكنت لها بعلاً وكانت حيلتي
وعرسي ومُلْكي ناشراً للواها³

فهذه المنزلة الكبرى وتلك المكانة المثلى تبرزان لنا الدور الذي أُنيط بكلّ من المدينتين طوال قرون وقرون، لذلك لا نعجب للاتّصال الذي امتدّ رافده بينهما؛ وأوّل من استطاع أن يُعزّز هذه الآصرة، ويدعّم هذه الوشيجة هو الوليّ الصّالح أبو مدين شعيب دفين هذه المدينة منذ 594هـ (1197م) في رأس العباد.

وحين نذكر هذه الشّخصيّة الجليّة، فإنّنا نضرب صفحاً عن كلّ ما يمسّ جوانبها الروحية والصّوفية لنركّز الحديث فقط على إسهاماته في التّوحيد ما بين تلمسان وفاس؛ إذ إنّ، رحمه الله، عمّق دراسته في فاس قبل أن ينتقل إلى بجاية وهو في أوج عطائه المعرفيّة وأقصى غايات التّحصيل، لذلك عُقدت له، بعد حلوله بها، مجالس العلم التي بلّغ فيها تلامذته ومريديه ما كان قد تلقّاه من معارف دينيّة ولغوويّة متعدّدة، ثمّ قيّض الله لحركته الصّوفية أن تعرف انتشاراً كبيراً في المغرب العربيّ كلّهُ. ونظراً إلى أنّ المدينتين تُعجّان بمئات الأعلام الموسوعيّين في الفكر والثّقافة والأدب والتّصوّف، فإنّنا سنقتصر على بعضهم لا أكثر؛ ومنهم:

1 . الآبلي (محمد بن إبراهيم) ولد بتلمسان سنة 681هـ ونشأ بها تحت رعاية جدّه

القاضي ابن غلبون، وبها تلقّى العلم على يد أبي الحسن التّنسي. وبعد أن اشتدّ عوده وانتشر بين الوري علمه، قصد المشرق لأداء فريضة الحجّ، وحين عاد إلى تلمسان عينه أبو حمّو الأوّل في منصب ضبط الجباية، لكنّ الآبلي كره هذه الوظيفة مؤثراً عليها الارتحال، فقصد المغرب الأقصى مُلقياً عصا التّسيار بمراكش ليتلقّى هناك ابن البناء المراكشي الذي أخذ عنه من العلوم ما كان في عوز إليه، وبعد أن أدرك ما أدرك، قفل راجعاً إلى مسقط رأسه مع سبق الإصرار على النّزول بمدينة فاس حيث لبث فيها سنين عدداً اتّصل في أثناءها بأبي الحسن المريني الذي قرّبه وأكرمه، بل وكان أحد مقربيه الأذنين في مختلف الحملات التي شنّها على الشّغور. وبعد استيلاء أبي عنان على المغرب الأوسط سنة 748هـ دعاه إليه لما بلغه عنه من علم وقدرة على الإقناع، وعمّق في الاجتهاد والعقيدة، فلبّى دعوته يشدّه الحنين والاشتياق إلى مدينته الأصليّة. وحين عزم أبو عنان على الأوبة إلى فاس، رافقه الآبلي إليها كي يتابع التّدريس والإقراء بها إلى أن أدركه الأجل المحتوم بها في شهر ذي القعدة سنة 757هـ (أكتوبر 1356م)، وهو مدفون بتربتها الطّاهرة⁴.

2. الخزاعي التلمساني: ولد بتلمسان سنة 710هـ (1310م)، وبعد أن نبغ في مختلف العلوم والمعارف تنافس في مصاحبته ملوك المغربين الأوسط والأقصى... انتقل إلى فاس فضمه السلطان أبو سالم المريني إلى ديوان إنشائه. وبعد مدة عاد إلى مسقط رأسه، فعمل كاتباً لدى الزيانيين، لكنه ما لبث أن عاوده الحنين إلى مسقط رأسه بساتين فاس وحدائقها الغناء، ومناظرها الخلابة ليستقر به المقام في بلاط بني مرين مكلفاً بكتابة الأشغال. ومن شعره، وقد كبا بموسى بن أبي عنان المريني فرسه، بحي الشّماعين من مدينة فاس إثر صلاة الجمعة:

مولاي لا ذنبَ للشّقراء إن عثرتُ
ومن يَلُمّها، لعمري، ظالمُها
قد هالها ما اعتراها من مهابتكم
من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
وفي النبيّ رسول الله إسوتنا
أعلى النبيّين مقداراً وخاتمها
كبا به فرسٌ أبقي بسقطته
في جنبه خدشة تبدو مراسمها
حتّى لصلى صلاةً جالساً ثبتت
لنا بها سنةً لاحت معالمها⁵

والخزاعي مدفون بمدينة فاس التي توفي بها بعد عصر يوم الأحد 5 ذي القعدة من سنة 789هـ (17 نوفمبر 1387م).

3. ابن مرزوق العجيسي⁶: ولد بتلمسان سنة 711هـ (1379م) لُقّب بشمس الدين، ويُعرف بالخطيب الأكبر، والجدّ، والرئيس. ومن أقوى ما تركه شاهداً على الصّلة بين تلمسان وفاس كتابه الشهير «المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن». هذا الأديب الواسع الشّهرة هو الذي كان خطيباً لجامع العباد قبل أن يضمّه أبو الحسن إلى مجلسه، ثم بعد هزيمة المرينيين في تونس وحدث انقلاب على ملكهم في تلمسان، انتقل ابن مرزوق مع أبي الحسن إلى فاس، وبعد أن اطمأن قليلاً عاد على تلمسان، لكنّ النّفي إلى

الأندلس كان في انتظاره لأسباب لا داعي لذكرها. وحين تيسر له الأمر بارح الأندلس مولياً وجهه شطر فاس تارة أخرى، حيث ضمّه السلطان أبو عنان إلى بلاطه. وبعد أن مكث مدة في هذه المدينة العلميّة عزم على السّفر إلى المشرق، فنزل بالقاهرة واستقرّ بها إلى أن أتاه اليقين سنة 781هـ (1379م)⁷.

4. أبو الحسن الصّغير (عليّ بن محمد بن عبد الحق الزّرويلي): تولّى القضاء بفاس وتوفّي بها سنة 719هـ، وهذا العالم الجليل، وإن لم ينتقل إلى جسمياً إلى تلمسان، فقد ناب عنه علمه النّقليّ الذي كان يدعو فيه إلى السّلفيّة المشرقيّة الشّبيهة بسلفيّة الإمام ابن تيمية، فهو المتسبّب في تسرّب هذا المذهب إلى تلمسان، حسبما يذكره المؤرّخ المهدي البوعبدلي⁸.

5. السّلاوي (أبو عبد الله محمد): وفد على تلمسان فاراً من بني مرين بفاس، وأخذ عن (عمران المشدّالي) وغيره قبل أن يعيّن مدرّساً بالمدرسة التّاشفينيّة. روى عنه المقرّي وتوفّي بتلمسان قتيلاً من لدن المرينيين عند احتلالهم لتلمسان سنة 737هـ حيث دُفن بها.

8. ابن الإمام (أبو زيد عبد الرّحمن بن محمد بن عبد الله): كانت له منزلة عظيمة لدى أمراء تلمسان ولدى أبي الحسن المريني بعد استيلائه على تلمسان سنة 737هـ إذ أولّوه جميعاً رئاسة العلماء في مجلسهم، وقرأ على يده كثير من العلماء الذين ذاع صيتهم في المغرب العربيّ وفي المشرق أيضاً من أمثال الآبلي وسعيد العقباني وابن مرزوق الجدّ وغيرهم⁹.

توفي بتلمسان ودُفن بها سنة 743هـ.

7. المقرّي (أبو عبد الله محمد بن محمد): وُلد بتلمسان ونشأ بها وتلقّى معارفه الأولى على أيدي طائفة من مفكّريها وأدبائها من أمثال الأخوين ابني الإمام، وأبي موسى عمران المشدّالي، والقاضي ابن عبد النور، وابن هديّة، وابن النّجار... وهلمّ جراً...

وعند استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان، كان قد صحب معه في هذه الخرجة زمرة من العلماء، ممّا أتاح للمقرّي أن يرشف من ينابيع معارفهم؛ نذكر منهم عبد المهيمن الحضرميّ الذي أفاد منه في الحديث وفي العربيّة، والآبلي الذي أفاد منه في التّعاليم. ثمّ

ارتحل بعد ذلك إلى بجاية وتونس رغبةً في المزيد من الزّاد العلميّ قبل أن يعود تارة أخرى إلى تلمسان، لكنّه ما لبث أن شدّ الرحال صوبَ مدينة فاس للاستزادة والتّمكّن، وبعد أن أدّى فريضة الحجّ آب إلى مسقط رأسه ثمّ صحب أبا عنان سنة 749هـ إلى فاس ليتولّى القضاء بها إلى جانب التدريس حتى توفاه الله بها سنة 759هـ، حيث حُمل جثمانه ليُدفن بمدينة الألف نبع¹⁰.

8 . الشّريف الحسني(أبو عبد الله محمد بن أحمد): ولد بتلمسان وتلقّى المبادئ الأوّليّة على الأخوين ابني الإمام، وعن أبي موسى عمران المشدّالي، والقاضي ابن عبد النور، وابن هديّة. وكان لهؤلاء الأساتذة فضل عظيم في تفتيق موهبته، حيث نبغ في التّنجيم والرياضيّات وغيرهما من العلوم. ارتحل بعد ذلك إلى فاس، وهناك التقى الآبلي فأخذ عنه علوما ومعارف مختلفة، عاد بعدها إلى تلمسان ليشغل بالتّدريس.

وحين استولى أبو عنان المريني على تلمسان سنة 753هـ ألحق الشّريف بمجلسه العلميّ في البلاط، ولما عاد إلى فاس كان في جملة الذين صحبوه. وبعد موت السلطان أبي عنان في مطلع سنة 756هـ، عاد هذا العالم إلى تلمسان بطلب من أميرها أبي حمو موسى الثاني، حيث شاد له مدرسة لتلقين العلوم، فظلّ يبيّث العلم بين تلامذة هذه المدينة، فختّم تفسير القرآن الكريم مرّتين، ودرّس علوما مختلفة إلى أن اختاره الله إلى جواره في شهر ذي القعدة من عام 771هـ¹¹.

9 . المصمودي التلمساني (الشيخ إبراهيم بن موسى): ينتمي أصله إلى صنهاجة المغرب قرب مكناس، وقد تلقّى العلوم أوّل الأمر على يد العبدوسي والآبلي وغيرهما بمدينة فاس، ثمّ ارتحل إلى تلمسان واتّصل بالشّريف أبي عبد الله للأخذ عنه، كما اتّصل بسعيد العقباني وأفاد منه قبل أن ينقطع للعبادة والتّدريس حتى بتلمسان سنة 804هـ ، فدفن بضريح الأمراء الزيانيّين جوار المدرسة اليعقوبيّة، وسُمّي المسجد المحاذي للضّريح باسمه(سيدي إبراهيم)¹².

10 . ابن مرزوق الحفيد(أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد): ولد بتلمسان سنة 776هـ ونشأ بها، وتلقّى العلم على جماعة من أهلها العلماء أمثال أبي عبد الله الشّريف، من

النّاحية الرّوحية، ووالده بطبيعة الحال، ثمّ دشّن رحلته الطّويلة في طلب المزيد من العلم بمدينة فاس، حيث أخذ النحو والعربيّة على ابن حياتي الغرناطي¹³.

توفيّ الحفيد بتلمسان سنة 842هـ ودُفن بالجامع الأعظم الشّهير بها.

11. ابن جلال (أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن): تولّى القضاء والإفتاء بتلمسان ثمّ بفاس، وقد اشتهر بورعه وترفعه عن الدّنيا، ونزاهته في سيرته ممّا حبّب إليه كلّ الذين التقوه في تلمسان وفاس التي استقرّ بها حتّى أتاه اليقين سنة 981هـ (1573م)¹⁴

12. المقرئ (أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العين بن محمد) ولد بتلمسان سنة 993هـ على الأرجح. تلقّى مختلف العلوم والمعارف في تلمسان، حيث حفظ القرآن الكريم، وألمّ على الفقه المالكي الإمامة شاملة، كما عني بدراسة ما يسمّيه المحدثون الفنون الكلاميّة أو الخطابيّة من شعر ونثر؛ كما درس عمّه صحيح البخاري وكتب الحديث السّنة، بالإضافة إلى صنوف أخرى من المعارف.

وعلى غرار علماء عصره، فإنّ المعارف التي تلقّاها لم تُقنعه أو تشبع رغبته الجامحة في المزيد، فتناق إلى البحث عن مكان يكون أكثر ثراءً وأوسع ثقافة فتوجّه لقاءً فاس بصفتها أكبر المراكز العلميّة في عصره من وجهة، ولأنّ أسرته كانت على صلة وآصرة بهذه المدينة. أضف إلى ذلك أنّ جمعاً غفيراً من علماء الأندلس كانوا قد هاجروا إليها فراراً بأنفسهم وحفاظاً على دينهم من بطش الأسبان. هذه العوامل وغيرها حفزته على الارتحال إليها للمرّة الأولى سنة 1009هـ لكنّ إقامته بها لم تدم إلّا قليلاً (عاماً وبعض عام) ليعود إلى مسقط رأسه الذي لم يُلف فيه ما كان يتمنّى، على ما يبدو، فقرّر أن يعاود الكرّة إلى فاس بعد أن أضناه الشّوق، وعاوده الحنين إليها لأمر أو لآخر سنة 10011هـ، بيد أنّ إقامته بها لم تدم إلّا قليلاً أيضاً، ولكنّه يعود إليها بعد عامين من التّاريخ المذكور؛ أي سنة 1013هـ ليطيّب له المقام هذه المرّة ويأخذه الجمال والرونق، فيظلّ فيها أربع عشرة سنة مجرّمة تولّى خلالها الخطابة والإمامة في جامع القرويين العريق، ثمّ أُسندت إليه الفتوى فتولّى هذا المنصب واستمرّ فيه إلى أن ترك هذه المدينة سنة 1027هـ لأسباب لم يكشف عنها قاصداً مصر التي وصلها بعد معاناة ومشقّة في رحلته، ولكنها كانت مائعة بالنّسبة إليه، حيث كان طوالها متأملاً متفكراً سجّل خواطره عنها بأسلوب جذّاب شائق¹⁵.

وما لا يعوز إلى تأكيد، هو أنّ المقرّي لم يكّ خاملاً أو وهناً، لأنّه بعد أن اطّلع على مكونات مصر يومئذ وببئتها واحتكّ بعلمائها ومفكرّيتها، قرّر أن يتابع المسير نحو الحجاز ليزور البقاع المقدّسة مؤدياً فريضة الحجّ. وبعد أن انتهت المشاعر، واكتملت الفريضة، آب إلى مصر ليشغل أستاذاً بالأزهر الشّريف، وليتوجّه بعد ذلك إلى بيت المقدس في رجب سنة 1037هـ (1626م) حيث ألقى دروساً بالمسجد الأقصى طوال شهر تقريباً انتقل منه إلى دمشق حيث أملى صحيح البخاري وختمه مع الطلبة في يوم مشهود يصادف 17 رمضان 1037هـ. وما يهمنّا، هو أنّ المقرّي . رحمه الله . أعدّ معظم جزازاته ووثائقه في فاس، لكنّه لم يؤلّف فيها شيئاً، بل كانت كلّ مؤلّفاته في القاهرة التي مكث بها أربعة عشر عاماً قبل أن يتوفاه الله بها في جمادى الثانية سنة 1041هـ (يناير 1632م) حيث دُفن قريباً من الجامع الأزهر، وكان قد انتهى من تأليف كتاب الشّهير (نفع الطيب) في آخر ذي الحجة من عام 1039هـ (1629م)، وهو آخر كتاب فرغ منه، بينما كان قد كتب مؤلّفاته الأخرى في فترات مختلفة. وبعد، فإنّ هذا الذي أتينا عليه ذكراً ما هو إلّا جهد المقلّ، إذ إنّنا نعتزّ بقصورنا عن حصر كلّ الأسماء التي أسهمت من قريب أو من بعيد في توطيد العلاقات الثّقافيّة والفكرية بين المدينتين العريقتين تلمسان وفاس.

هذا جانب، وأمّا الجانب الآخر الجدير بالتقدير والفخار، فإنّنا نلاحظ، وعلى الرّغم من التّطاحنات السّياسية أو الرّعاميّة التي كانت كلّ دولة تحاول أن تفرضها على الأخرى، أنّ الصّلات الثّقافيّة بين البلدين لم تتأثّر لتلك العوامل الطّارئة المؤقتة، كما نقرّر بأنّ هذه الصّلات تزايدت أكثر ابتداءً من القرن العاشر الهجريّ، حيث أمّ مدينة فاس كثيرٌ من العلماء والمفكرين والفقهاء الجزائريين من تلمسان خاصّة، وفيها تولّوا القضاء والتّدريس، وأنيطت بهم مهامّ جليلة تتلاءم مع تخصّصهم المذهبيّ في الفقه المالكيّ.

هوامش وإحالات

¹. جذوة الاقتباس: محمد بن القاضي، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1973م. 1: 315.

². المنتخب النّفيس من شعر ابن خميس، مطبعة ابن خلدون بتلمسان، الطّبعة الأولى 1365هـ. ص 62.

-
- ³ . ديوان الأمير عبد القادر: عمل عبد الوهاب بن منصور، مطبعة ابن خلدون، الطبعة الأولى 1371هـ (1952م). ص 17 . 19.
- ⁴ . ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكتي، طبع القاهرة 1351هـ ، ص 245 . 249.
- ⁵ . ينظر: تاريخ الجزائر: عبد الرحمن الجيلالي، الطبعة الأولى . الجزائر 1375هـ (1955م). 2: 130 . 131.
- ⁶ . يعود أصله إلى ضواحي قلعة بني حمّاد.
- ⁷ . لتفاصيل ضافية، تنظر الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب، نشر القاهرة 1: 223 . 226.
- ⁸ . تنظر مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية في الجزائر(احتجبت) ع. 26/السنة الرابعة رجب/شعبان 1395هـ (جويلية/أوت 1975م) ، ص 126.
- ⁹ . نيل الابتهاج: أحمد بابا التنبكتي، ص 245 . 246.
- ¹⁰ . لا داعي إلى ذكر المصدر، لأنّ الرجل المذكور في مختلف المظانّ التي تعرّض لأعلام المغرب الإسلاميّ بعامّة.
- ¹¹ . تراجع مجلة الأصالة، ع. 26 . السنة 4/ وكان من بين الذين درسوا علي يديه عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون. وشقيقه يحيى.
- ¹² . يراجع م. ن. ع. 26.
- ¹³ . ينظر البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: ابن مريم التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1/ الجزائر 1986م، ص 201 . 214.
- ¹⁴ - تراجع مجلة الأصالة، ع. 26، س. 4.
- ¹⁵ - سجّل ذلك في كتابه الموسوعيّ « نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب»، طبع القاهرة 1928م ، ج 1 ص 28.